الكتابة التاريخية عند شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله
بين العاطفة الذاتية والحقيقة التاريخية

الدكتور محمد بليل
قسم العلوم الإنسانية -جامعة ابن خلدون تيارت

مقدمة:

يعتبر المرحوم أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين، من أبرز أعمدة الكتابة التاريخية في الجزائر والعالم العربي الإسلامي، نظرا إلى المنتج التاريخي المهم الذي خلّفه بعد وفاته، تأليفا و تحقيقا وترجمة، وصال وجال عبر جامعات العالم محاضرا ومدرّسا وشارحا لتاريخ بلاده، وكان سفيرا للثقافة العربية الإسلامية أينما حلّ، بروح علمية ومنهج تاريخي أكاديمي، وركز في دراساته على التراث الحضاري للجزائريين في فترات مختلفة وركز على الفترتين الحديثة والمعاصرة لقربها من الدراسات الاستعمارية، التي حاولت التقليل من شأن تاريخ الجزائريين وحاولت جاهدة إدماج الجزائريين في منظومتها الثقافية.

حيث سنحاول علاج إشكالية الكتابة التاريخية، عند سعد الله في هذا البحث المتواضع، لنستفسر عن شخصيته ومكانته العلمية وتجربته في التأليف والمناهج المتبعة في دراساته ودوره في التأسيس للمدرسة التاريخية الجزائرية؟

وفي إطار تحضيرنا لهذه الدراسة، قمنا بقراءة نوعية لبعض مؤلفاته وحواراته مع وسائل الإعلام المكتوبة ومساهمات بعض الباحثين والكتاب الجزائريين والأجانب حول شخصيته وأهمية الكتابة التاريخية عنده من خلال ركن "مساهمات" التي تفضلت جريدة الشروق الجزائرية الموقرة، بفتحها أمام أصدقائه وطلبته والباحثين في التاريخ والكتاب في العديد من التخصصات.

مدخل: أبو القاسم سعد الله الإنسان والمؤرخ الجزائري:

أبو القاسم سعد الله شيخ المؤرخين الجزائريين من مواليد 1930م بضواحي قمار من ولاية الوادي بالجزائر، باحث ومؤرخ، حفظ القرآن الكريم، وتلقى مبادئ العلوم من لغة وفقه ودين، وهو من أبرز رجال الفكر الجزائريين، ومن أعلام الإصلاح الاجتماعي والديني. له سجل علمي حافل بالإنجازات من وظائف، ومؤلفات، وترجمات[1]، وفي سنة 1947 انتقل إلى جامع الزيتونة وبقي فيه حتى 1954 وحصل هناك على شهادة الأهلية، وابتداءً من الخمسينيات بدأ يكتب في صحيفة البصائر، لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين آنذاك، ثم بدأ يُعلم أبناء الجزائر سنة 1954 بمدرسة الثبات بالحرّاش شرقي العاصمة، وانتقل للتعليم في السنة الموالية إلى مدرسة التهذيب بعين الباردة التابعة حاليا لولاية سطيف[2]، وكان يطلق عليه "الناقد الصغير".

وفي أكتوبر من سنة 1955 سافر إلى القاهرة بمساعدة جمعية العلماء، وهناك التحق بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، وبعد أربع سنوات حصل على شهادة الليسانس في اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وحاز على شهادة الماجستير في التاريخ والعلوم السياسية سنة 1962، ثم انتقل في نفس السنة إلى أميركا، حيث درس في جامعة مينيسوتا التي حصل منها على شهادة الدكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر باللغة الإنجليزية سنة 1965[3].

وتخصص في التأليف والترجمة، وكان حينها أستاذا مساعدا في التاريخ بجامعة ويسكونسن أوكلير بأمريكا ليعود بعد ذلك إلى الجزائر، حيث أصبح وكيل كلية الآداب بجامعة الجزائر 1968-1972م، ثمّ أستاذا ورئيس قسم للتاريخ فيها، وبتاريخ 1996 انتقل الفقيد إلى الأردن ودرسّ

التاريخ في جامعة آل البيت إلى أن عاد إلى الجزائر، والتحق بالجامعة الجزائرية مجددا سنة 2001 ومنذ ذلك العهد لم يترك التدريس في الجزائر وأشرف على عشرات رسائل الدكتوراه والماجيستر.

وإضافة على ذلك، فقد كانت له العديد من المساهمات التاريخية، حيث حاضر وشارك كأستاذ زائر في العديد من الجامعات العالمية كجامعتي ميشيغان مينيسوتا بأمريكا، وجامعة الملك عبد العزيز السعودية وجامعة دمشق (سورية) وجامعة عين شمس المصرية ومعهد البحوث والدراسات العربية بمصر أيضا، كما أنّ الأستاذ كان له نشاط أكاديمي كبير، حيث عين عدة مرات مبعوثا من وزارة التعليم العالي الجزائرية إلى الجامعات العربية في مصر وسورية والعراق لتوظيف الأساتذة، وممثل جامعة الجزائر في مؤتمر اتحاد الجامعات العربية الكويت 1971م وشغل مناصب عضوية في الكثير من اللجان منها لجنة إصلاح التعليم العالي، واللجنة الوطنية للتعريب. وعضو هيئة تحرير مجلة (المنار) المحكمة، جامعة آل البيت، الأردن منذ 1997م. ورئيس لجنة العلوم الإنسانية لمعادلة الشهادات الأجنبية الجزائر ورئيس لجنة ترقية الأساتذة المشاركين إلى رتبة أستاذ، في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانية الجزائر.

منح المرحوم أبو القاسم العديد من الأوسمة، وحظي بالعديد من التشريفات تقديرا لمجهوداته الجبّارة ومواقفه الكبيرة، ومنها وسام المقاوم على المساهمة النشطة في الثورة الجزائرية، كما حظي بتكريم رئيس الجمهورية الأسبق الشاذلي بن جديد بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال الجزائر، وهو الرئيس الشرفي لاتحاد الكتاب الجزائريين لسنوات عديدة، هذا وكرّمته نخبة من الأساتذة والأدباء بمناسبة صدور الطبعة الأولى من كتاب الحركة الوطنية الجزائرية، في مدرج جامعة الجزائر، ونفس الشيء مع أدباء وهران وأيضا بجامعة عنابة[4]، وعالميا شارك كضيف الشرف عند توزيع جوائز الدولة التقديرية السعودية سنة1984، ومنح جائزة الإمام ابن باديس من قبل مركز دراسات المستقبل الإسلامي الموجودة في لندن 1991م، الأستاذ شارك في عشرات المؤتمرات والندوات التاريخية والفكرية في العديد من دول العالم كتونس ومصر والسعودية والولايات المتحدة وفرنسا، وله العديد من المؤلفات الأدبية والتاريخية، توفي يوم 14 ديسمبر 2013 بالمستشفى العسكري "عين النعجة" بالجزائر حيث كان يتلقى العلاج فيه[5].

إذن أبو القاسم سعد الله هو أحد أعمدة الثقافة الجزائرية في مرحلة ما بعد الاستقلال، وبخاصة في التاريخ والأدب، وهو إلى جانب ذلك، كاتب متميز بمواقف صارمة في مجال التاريخ الوطني والعربي الاسلامي[6]؛ وشاعر متميز بفضل الكتابات العديدة في هذا المجال، مما جعله صاحب موسوعة ثقافية متميزة[7]، واتسم بصفة التواضع التي يتميز بها العالم عن غيره؛ وبذلك جمع بين العديد من صفات المثقف العالم.

هذا ما جعلنا نبحث في جانب من جوانب كتاباته العديدة، أبرزها تاريخ الجزائر السياسي والثقافي خلال الفترة الاستعمارية، إضافة لمواضيع اجتماعية وأدبية وإسلامية؛ وعمل أيضا كباحث منذ سنة 2008 بالمركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954 في إطار كتاباته التاريخية، حيث أكمل بذلك مشواره العلمي والأكاديمي بصورة مشرفة قلما تميز بها مؤرخ آخر[8]، وبهذا السلوك والمثابرة، ظل المؤرخ الجزائري يعمل بشكل دؤوب وبدون كلل من أجل الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

تجربة سعد الله مع الدراسات التاريخية الجزائرية خلال الفترة الاستعمارية:

تميزت الكتابة بمختلف أشكالها عند المؤرخ سعد الله، بالجدية والصرامة والعلمية واتباع أساليب دقيقة في مجال البحث التاريخي، بالحفر عن المصادر الغنية بالتراث والأدب والفكر وتحقيق مخطوطات العلماء الجزائريين في الفترات الحديثة والمعاصرة من أجل إثبات الحقيقة التاريخية، بأن الشعب الجزائري أنتج نخبا مثقفة في شتى العلوم؛ ردا على أكاذيب أنصار المدرسة الاستعمارية التي كانت تحاول إخفاء

إنجازات النخب الجزائرية وعلماءها وكتابها، ذلك ما تطرق له تطرق العديد من الأساتذة الحاضرين من رفقاء ومدعوين بمناسبة التأبينية التي قامت بها جريدة الشروق[9]، فأشادوا بخصاله العلمية وكتاباته التاريخية عن الأوضاع السياسية والثقافية التي عرفتها الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، "حيث تطرق الدكتور محمد بلعيد عن ذكريات جمعته بالمؤرخ المرحوم أبو القاسم سعد الله، وإصرار هذا الأخير على البحث والتأليف في تاريخ الجزائر، بمواصلة تعليمه بعد تخرجه من الزيتونة، ورفض الاتحاد الوطني للطلبة الجزائريين إرساله في بعثة إلى المشرق وأوروبا والولايات المتحدة الأمريكية للدراسة، مشيرا إلى أنه عرضت عليه مناصب عديدة من بينها منصب وزير للإعلام وسفير إلا أنه رفضها جميعا وزهد فيها وآثر التفرغ للبحث والتأليف في الحركة الوطنية وتاريخ الجزائر.

وذكر الشيخ الحسيني أيضا في الكلمة التأبينية ما يلي[10]: "تعلمت الوطنية من سعد الله وحفظت كتاب سعد الله وأنا في الكويت وقرأت مقالاته المنشورة في مجلة "المعرفة" وهو في أمريكا، وقدر الله أن وظف في الشركة الوطنية للنشر والتوزيع كرئيس للقسم العربي، وتشاء الأقدار أن أكون من يستقبل إصدارات سعد الله. "أما الدكتور أمين الزاوي الذي صرّح قائلا [11]: "ما عساني أقول في هذا العالم الجليل الذي عرفته بوهران وهو يناقش أطروحة دكتوراه صديقي المرحوم عمار بلحسن، وكان هذا الأخير يرتجف من شدة ما يعرفه من حزم وصرامة، وكانت المناسبة فرصة للتعرف على الرجل الفاضل، تأكدت عندها انه ليس بوحيد اللغة كما كان يقال عنه أنه يتقن العربية فقط، وعرفت أنه يحسن الفرنسية والانجليزية والألمانية وغيرها من اللغات، وأدركت بعدها انه لا سلطان لهذا الرجل غير سلطان العلم والمعرفة، وأنه لا يحسب حسابا لشيء آخر غير هذه الأشياء".

واهتمّ أيضا سعد الله بالأدب والثقافة الشعبية حسب ما يذكر الإعلامي "أحمد حمدي"[12]: "تعرفت عليه في مجلة الآداب البيروتية لسهيل إدريس وكانت مدرسة للأدب الحديث التي جمعت عبد الوهاب البياتي ونازك الملائكة وبدر شاكر السياب ونزار قباني وكان أيضا سعد الله واحدا من هؤلاء رواد الشعر الحديث، وكان أول من أصدر ديوانا للشعر الجزائري الحديث "النصر للجزائر" سنة 1957 وأول من كشف عن أول رواية في الأدب العربي وهي رواية مصطفى بن إبراهيم في الوقت الذي كان الجميع يظن أن رواية هيكل "زينب" هي أول رواية عربية. وهو أوّل من اكتشف أول رواية عربية وصحح مغالطة هيكل، وألف كذلك كتابا في الشعر والأدب ناقش فيه وجهات نظره في النقد الأدبي والشعر والقصة وأعراض الآداب الأخرى[13].

وتحدث الشيخ محمد الصغير بلعلام مطولا عن التجربة النقدية في مجال الصحافة عند سعد الله قائلا[14]: "قليل من الناس يعرف أن الدكتور سعد الله كان صحفيا وناقدا وأديبا وتنازل عن هذه الوظيفة وتفرغ للتاريخ سنة 1969، عندما كنت رئيس تحرير مجلة "القبس" التي صدرت في مارس من نفس السنة، وهي الفترة التي عقد فيها ملتقى أدباء المغرب العربي بالرباط. وكان سعد الله من المشاركين في الملتقى، نشر له حوار وتحليل فيه بعض آرائه في الأدب باللغة العربية وباللغة الفرنسية. وقال فيه: "الأدب الجزائري ينبع من تجربة الشعب الجزائري والعربي والعالم الثالث وعليه جاء معبرا عن التحرير. . . الكتاب باللغة العربية يشعرون نفسيا وقوميا أن علاقتهم بالمستعمر علاقة اضطهاد، ويظهر على الكتاب بالفرنسية أن أدبهم يخضع لتأثيرات الثقافة الفرنسية. . . الثقافة الفرنسية متعالية ومتكبرة".

وتوضح لنا هذه الآراء المعبرة عن قوّة الكتابة عند سعد الله بمختلف أشكالها، أنه كتب في مجالات عديدة وربطها بتاريخ الشعب الجزائري والأمة الجزائرية، التي حاول الاستعمار الفرنسي، عبر تاريخه الاستعماري في الجزائر محو الذاكرة الجماعية للسكان الجزائريين من خلال كتابات ضباطه العسكريين[15] وبعض باحثيه المتحيزين[16]، باستثناء بعض الأكاديميين الذين اعتمدوا على أرشيف الإدارة الاستعمارية، وخرجوا باستنتاجات علمية موضوعية[17] وهو ما جعل المرحوم سعد الله يتوجه بقوة

للكتابة التاريخية، لإماطة اللثام عن الرصيد الثقافي والأدبي للجزائريين في ظل الاحتلال الفرنسي، ويطرح الإشكاليات المختلفة حولها[18]، مبرزا عبقرية الجزائريين الذين تحدو آلة الاستعمار التدميرية، من خلال نضال الشعب الجزائري عبر مقاوماته المختلفة في القرن التاسع عشر، وجهاده السياسي والثقافي منذ نهاية القرن التاسع عشر[19].

وقام سعد الله بالتوازي مع أعماله السابقة، بالعمل على موضوع الحركة الوطنية الجزائرية ما بين 1900- 1930 في إطار تحضيره لرسالة دكتوراه من الجامعة الأمريكية، والعمل في نفس الوقت التحضير لأجزاء عن هذا الموضوع في الفترات السابقة والمقبلة لها، والتفكير في البحث عن المشروع الثقافي للشعب الجزائري عبر فترة الاحتلال، حيث واجهته صعوبات جمّة ذاتية بفقدانه لقصاصات المادة العلمية والضغوط السياسية الممارسة على التيار العربي الإسلامي، والموضوعية التاريخية التي تبنها سعد الله في كتاباته بعيدا عن هذه الضغوط[20]، واستطاع أبو القاسم سعد الله تجاوز هذه المحن، حسب ما يذكر، هو نفسه في حديث مع إحدى الجرائد: "لذلك قصة طويلة لا يتسع لها هذا المجال وقد تحدثت عن ذلك في كلمة منشورة بعنوان "نكبة ثقافية" كما أشرت إليها في مقدمة الجزء الثالث من التاريخ الثقافي ومقدمة الجزء الثاني من الحركة الوطنية. وقد بقيت جرحا لا يندمل رغم أني أعدت كتابة الفصول الضائعة من الحركة الوطنية وغيرت منهجي في خطة التاريخ الثقافي في عهد الاحتلال، وراجعت كتبا ومخطوطات كنت قد قرأتها منذ زمن بعيد ومع ذلك فاتني الشيء الكثير رغم ما حفظته ذاكرتي وما ظل في بعض البطاقات الباقية"[21].

ويذكر أيضا أحد الباحثين الجزائريين في هذا الموضوع ما يلي[22]: "من أبلغ أمثلة الطموح العلمي التي عزّ نظيرها لدى المرحوم: تجاوزه لما سمّاه "النكبة الثقافية" التي ألمّت به عام 1988، ممثّلة في ضياع محفظته (في مطار هيثرو –لندن) المشتملة على الفصول الثلاثة الأخيرة من الجزء الأول من الحركة الوطنية (1830–1900)، أي قسمَه الثاني (مرحلة 1860–1900)، وبطاقات ذلك الجزء جميعا، وقسم هام من الجزء الثالث من تاريخ الجزائر الثقافي، وجميع بطاقات جزأيه الثالث والرابع. فرغم أنها زعزعته، إلا أنها لم تحبط مشروعه العلمي. . . ".

يدل هذا الحرص والإصرار على مواصلة هذا العمل الشاق من الكتابة التاريخية، حول التاريخ السياسي للجزائر في هذه الفترة، برهانا حقيقيا على تشبع هذا المؤرخ بالروح الوطنية الجادة والبعيدة عن كل تملق، وتؤكد لنا حرصه على التنقيب والبحث عن النخب الوطنية والتيارات السياسية التي غيرت من استراتيجية المقاومة اتجاه الغزو الفرنسي مؤكدا عظمة وبطولة المناضلين الجزائريين الذين تمكنوا من العودة بالشعب الجزائري إلى أصالته وطبائعه الأصيلة التي حاول الاستعمار تحطيمها وضربها في العمق، لذلك اتجه سعد الله إلى الكتابة عن التاريخ الثقافي للجزائريين خلال الفترة الاستعمارية، مقتنعا بوجود وثائق ومصادر تؤرخ لهده الفترة، عكس بعض دراسات الضباط الفرنسيين وبعض المؤرخين الفرنسيين الذين حاولوا اعتبار أن هذه الأرض كانت خالية من العلماء والمثقفين وأنها بدأت مع الاستنارة الفرنسية[23].

وقد وضح العديد من الباحثين الجزائريين الكتابة التاريخية عند سعد الله في المجال الثقافي، بأنه أثبت عبقرية الجزائريين عبر هذه الفترة بكاتباتهم التاريخية وفي مجال الصحافة وفي الأدب والفن والمسرح، مما يوحي بأن الجزائريين لم يستسلموا للمشروع الحضاري الفرنسي المزعوم! مثل ما يذكر الكاتب أحمد ابن السائح[24]: "وأنتج في مجال تخصصه طائفة من التأليف الموسوعية ككتابه الضخم "تاريخ الجزائر الثقافي " الذي جاء في عشرة مجلدات، واشتمل على أكثر من 5071 صفحة، وموسوعته الأخرى "أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر" المؤلفة من خمسة مجلدات واشتملت على 1675 صفحة... وستبقى كتبه ودراساته شاهدة على موسوعيته وأصالة أبحاثه وغزارة علمه؛ فهو الرجل الذي جمع أطراف العلم، واعتكف في محراب التاريخ، ورابط دهرًا طويلا في خنادق الأدب، وكان بحق المفكر والمؤرخ والرحالة الطَّوَّاف الذي جاب الأمصار والبقاع النائية

من أجل استكمال معلومة أو تسجيل تهميش يظنهما البعض من البساطة بمكان...".

وتحدث الكاتب أيضا عن المكانة العلمية والتاريخية عند عودته إلى الجامعة الجزائرية بالتدريس والبحث والمحاضرات وتحرير الدرس التاريخي من قبضة المدرسة التاريخية الفرنسية، وتفسيرها المغرض للتاريخ من وجهة النظرية الاستعمارية الشوفينية[25].

أما في مجال الكتابة التاريخية حول الثورة التحريرية، فيبدو سعد الله متحفظا في الغوص فيها حسب العديد من الدراسات والمحاضرات التي تطرق فيها لهذا الموضوع بسبب حساسية الموقف وحداثة الفترة، التي لا زال بعض أصحابها سادة صناع القرار، وصعوبة الوصول إلى الوثائق التاريخية وتناقض روايات أصحاب الشهادات الأحياء، مما يصعب من مهمة الباحث التاريخي في هذا الموضوع وقد تطرق سعد الله لهذه الحساسية في الكثير من كتاباته، حيث خصص لها حيزا لإحدى المقالات المنشورة حول إشكالية الكتابة التاريخية[26]، وأيضا في حوار مع جريدة الحقائق الأسبوعية، موضحا في رده على سؤال يتناول أسباب تحفظه في الكتابة على هذا الموضوع في ما يلي[27]:

"التاريخ يجب أن يكتب من مسافة زمنية معقولة أي بعد انقراض الجيل الذي صنع أحداثه، وكلما ابتعدت المسافة كلما توفر التفسير الموضوعي ومعالجة الأحداث ببرودة علمية. أما إذا اقتربت المسافة فإن حرارة العاطفة هي التي ستطغى وتعطي للأحداث تفسيرا غير موضوعي يكون عادة خاضعا لنزوات الأشخاص الدين صنعوا الأحداث، ومن ثم كنت أعتقد أن تاريخ الثورة ما يزال غير جاهز لتناوله في الكتابات التاريخية الأكاديمية".

نعتقد أن سعد الله قد جال وصال في تاريخ الجزائر، وترك لنا رصيدا هاما من المادة التاريخية الموضوعية عن تاريخ الجزائر في العديد من المواضيع السياسية والثقافية، المتمثلة في وجود شعب وأمة فوق هذا التراب الوطني الذي حاول المستوطنون مصادرته من الجزائريين بفضل الترسانة التشريعية العقارية، محاولين طرد السكان الأصليين من أملاكهم والسكن محلهم وفق سياسة استعمارية ممنهجة طبقا لمراحل، من أجل القضاء على هذا الجنس أو إبعاده عن وطنه [28]، ذلك ما استخلصناه من أبحاث سعد الله، الذي اتبع منهجا تاريخيا صارما في تحليل المادة التاريخية التي توفرت لديه ومناقشة أراء الكتاب والمؤرخين والتحقيق في المخطوطات من أجل الوصول للحقيقة التاريخية النسبية.

خصوصيات المنهج التاريخي عند أبو القاسم سعد الله:

أ-واقعية الطرح التاريخي: أجاد المرحوم أبو القاسم سعد الله، الكتابة التاريخية بشكل متميز، نظرا لواقعية الأفكار التي طرحها للمناقشة ثمّ التحليل والخروج بنتائج غزيرة، بفعل قوّة الاطلاع والتمحيص والنقد، وهي أساليب علمية، تناولها المختصون في علم المنهجية من باحثين مشارقة[29] ومغاربة[30]، استطاع سعد الله في نظرنا التعمق في هذه المناهج ووظفها في دراساته وبحوثه، مما جعل طرحه العلمي يتميز بالموضوعية وعدم السكوت عن الحقائق التاريخية التي توصل إليها.

وعندما تحدث عن مسألة كتابة التاريخ الوطني، عبَّر عن أمله في أن تظهر فئة من الباحثين تهتم بكتابة تاريخنا من أجل "الكشف عن الذات الجزائرية وتحديد أبعادها وإبراز مساهمتها في الحضارة الإنسانية عامة والحضارة العربية الإسلامية خاصة". ويتساءل عن ذلك بقوله: متى يتحقق هذا الأمل"[31]؟

أما في مجال الهوية الوطنية ولغة الجزائريين التي حاول الاستعمار طمسها، فكان مؤرخنا من الدافعين عنها بشراسة في مخالف كتاباته، ولذلك أتقن عدّة لغات من أجل الإلمام بما كتب عن الجزائريين عبر تاريخهم الطويل وماضيهم المتنوع والوقوف ضد المعجبين بلغة استعمار الأمس، لأنه كان طريدا في عهده و تعلّم في غير مدارسه، ورغم ذلك لم يقف موقفا متعصبا من اللغة الفرنسية فتعلمها وكتب بها[32]، ولكنه لم يتردد في الدفاع عن لغته الأصلية في كل مناسبة وظل ملتصقا بهويته العربية والإسلامية ولم يتنكر لها وظل

واضحا وضوح الشمس في هذه القضية في جلّ كتاباته رغم تغير الأحوال وحدوث الأهوال، لأنه في نظرنا لم يكن يعبر عن اتجاه حزبي معين وإنما عن هوية شعب، ترسخت لديه هذه اللغة في وجدانه فاحتضنها سعد الله، انطلاقا من قناعته الراسخة كإنسان جزائري مسلم، لم يتنكر لهويته حسب اعتقادنا، مثل ما يجيب على سؤال صحفي إحدى المجلات[33]:

"بقي أن نشير إلى مسألة إبادة اللغة أو تدمير الهوية، لقد تناولنا هذا الموضوع في كتاباتنا عدة مرات، وقد سبقنا إليه الوطنيون في كل جيل وعملوا على مقاومة هذه الإبادة وهذا التدمير كل في مجاله. ومن الأسف أننا نحن الجيل الحاضر نعترف بما حدث لهويتنا، بما فيها اللغة، وننعى باللائمة على الاستعمار، ولكننا الآن نفعل مثله أو أكثر منه في تدمير هويتنا بأنفسنا...".

وفي مواضيع أخرى نجد سعد الله يتناول كتاباته التاريخية بالموضوعية، محاولا نقد المصادر التي أخذ منها معلوماته، فنجده في الكثير من المرات، يستشهد بما كتبه أنصار المدرسة الاستعمارية في مقالات له عن تاريخ الجزائر و يتطرق لمقاصد الكتابة عندهم ثم الكشف عن خباياها، دون نسيان محاسنها وفوائدها لدى الباحثين الجزائريين، ففي مقال له عن منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر[34]، نجده يتبع صيرورة هذه الكتابة عند العسكريين الفرنسيين والمؤرخين الأكاديميين والباحثين الفرنسيين الموضوعيين، وفي نفس الوقت ينتقد بعضهم بشكل موضوعي، أمثال كتابات شارل أندري جوليان[35].

واهتم أيضا سعد الله بكتابات الجزائريين المتعددة في الفترة الحديثة، حيث حقق الكثير من المخطوطات، وكشف عن أهمية تلك المصادر التي أرّخت للجزائريين كابن الفكون وأبو راس الناصري والأغواطي والعديد من المصادر الهامة التي اضحت في متناولنا[36] وترجم العديد من الدراسات، وألف العديد من الدراسات التي تحدثنا عنها سابقا، فنجدة في دراسة الحركة الوطنية يقارن ما بين المصادر الجزائرية التي كانت شاهدة على الأحداث أو كانت من صناعها أمثال فرحات عباس وابن باديس ومصالي الحاج وغيرهم والمصادر الأرشيفية الفرنسية والجرائد المعاصرة خاصة منها البريطانية والأمريكية، حيث يحاول أن يكتب تاريخا بعيدا عن المتأثرات والضغوط، بهدف الوصول للحقيقة التاريخية وهو متيقن بأن كتاباته التي مسّت الحركة الوطنية كتبها بعدا عن الضغوط النفسية والعاطفية، خارج أرض الوطن بالولايات المتحدة الأمريكية[37].

حاول سعد الله أن يكون موضوعيا في استرداده للذاكرة التاريخية للنخب الجزائرية وتياراتها وحاول تتبع مساراتها وأعلامها وإنجازاتها بالتساوي، رغم النقص الذي لاحظه هو بنفسه في التقصير عن الكتابة عن الحزب الشيوعي بعد الحرب العالمية الثانية، وهو ما يؤكد الروح النقدية في كتاباته وقد لاحظ العديد من الباحثين مواقف سلبية لسعد الله اتجاه بعض قضايا التاريخ الوطني، خاصة ما تعلق بالمسألة الأمازيغية وطرح بعض نخبها الشوفيني اتجاه العنصر العربي والثقافة الاسلامية بسبب الصراعات الثقافية والجهوية، ولكن حسب تلك الدراسات فإن سعد الله كان يتراجع عن أفكاره السابقة اتجاهها كلما توصل إلى نتائج عن هذا الموضوع[38].

وكان سعد الله حريصا أيضا على الابتعاد عن الضغوط في الكتابة التاريخي، حتى ولو كانت تمس السلطة القائمة في بلده، فهو لم يتردد في ذكر كل الجزئيات ذات الحساسية مثل ما يجيب على سؤال لإحدى الجرائد[39]: "أما عن موقفي فإنني كتبت ما كتبت بعيدا عن السلطة التي لا أشعر أنني مدين لها بشيء. وعندما يتحرر الإنسان من "الديون" يستطيع أن يفكر بحرية. . . والحق أنني لم أطلب من السلطة شيئا لم تعطني إياه حتى أغضب فأكتب ضدها فأنا ألاحظ وأبحث وأكتب ما قد يكون لصالحها أو ضدها دون شعور بأنني أسترضي أو أهاجم لغرض ما، وكلما ابتعد المؤرخ عن الطمع كلما شعر بالحرية وكتب ما يمليه عليه الضمير والحقيقة وأنا لا أثأر من أحد ولا أطمع في أحد قناعة بما عندي. . . ".

ومن هذا المنطلق نجد أن كتابات سعد الله تميزت في عمومها بالطرح الموضوعي والعلمي نظرا لاعتمادها على مناهج علمية أصيلة تمّ وضعها من قبل مختصين في مجال العمل المنهجي باسترداد الأحداث التاريخية وتحليلها بطريقة موضوعية[40]، لكن سعد الله يبقى إنسانا قبل أن يكون مؤرخا، فله كيانه وأحاسيسه الوطنية والدينية، مما لا يمكن لأي باحث أن يتطاول على تشبث شيخ المؤرخين بأصالته وانتماءاته، التي لم يخفيها في كتاباته المختلفة.

ب-ذاتية الانتماء العربي الاسلامي: ناضل كثيرا في صفوف الجامعة الجزائرية، محاولا إبراز الطرح الموضوعي للدراسات التاريخية العربية الاسلامية في مواجهة بعض التيارات التغريبية التي كانت تصر على ربط مصير الأجيال الشابة بثقافة مستعمر الأمس، ذلك ما استخلصناه في طرحه الموضوعي لقضايا الساعة من خلال المقالات التي كانت تنشرها له جرائد وطنية في عهد الحزب الواحد مثل جريد الشعب[41] التي نشرت له العديد من المقالات العامة حول تاريخ الجزائريين ومستقبلهم في ظل هويتهم، التي ناضل من أجلها الآباء والأحفاد من أجيال الحركة الوطنية وثورة التحرير المجيدة وأيضا جرائد وطنية أخرى في عهد التعددية السياسية في الجزائر أمثال جريدة الشروق الجزائرية[42].

فحسب أحد الباحثين الجزائريين الذي ناقش وحلل مواقف سعد الله اتجاه مناهج التدريس وآليات تلقين العلوم للطلبة الجزائريين موضحا[43]: "كانت الجامعة الجزائرية في الستينيات جزائريةً بالاسم فقط، أما المناهج واللغة فكانت فرنسية، وكان الأساتذة الفرنسيون يستحوذون على نصيب الأسد من المناصب البيداغوجية فيها، حتى في تدريس التاريخ الجزائري! وتصدى الأساتذة المعرّبون لهذا الشذوذ الثقافي، رافعين شعارات التعريب، والجزْأرة، والديمقراطية. ونشبت معركة وقف فيها كثير من الجزائريين المستَلَبين ضد إصلاح الجامعة. . . ".

وكان الدكتور سعد الله يرى ضرورة احترام المبادئ الوطنية وهويتها معتقدا، بأنّ سيادة الجزائر ونهضتَها لا تتحقّق ولا تكتمل إلا بإعادة إدماجها في محيطها الطبيعي العربي الإسلامي، موجها النقد للتيار الفرونكوفيلي المتشبّث بالواقع القائم، وفي نفس الوقت ناضل ضد الرداءة والفوضى وتحريف الجامعة عن دورها الحضاري[44].

وقد كتب المؤرخ أبو القاسم سعد الله، العديد من المقالات التي تشير إلى هذا الطرح، ونعتبر ذلك أمرا طبيعيا لمواطن ناضل في صفوف الطلاب المسلمين بالقاهرة وتونس وشارك جمعية العلماء المسلمين همومها ونضالاتها وكتب عنها الكثير لإنصافها من التيار التغريبي بعد الاستقلال الذي حاول جاهدا إبعادها عن الساحة الوطنية، مركزا بأنها كانت جمعية دينية وخيرية إسلامية، متناسيا مواقفها المشرفة اتجاه القضايا الوطنية وثورة التحرير المباركة[45]، وقد سجل الدكتور خليفي عبد القادر في مقال له عن البعد الاسلامي في كتابات سعد الله، تشبثه بالإسلام والعروبة التي دافعت عنها جمعية العلماء إبان الحقبة الاستعمارية موضحا[46]: "ورد في كثير من كتابات الأستاذ سعد الله اقتران العروبة بالإسلام، فالكاتب يعتبر العنصرين مرتبطين معا، وذلك عندما يشير إلى الجزائر أو إلى قضايا إسلامية مصيرية معينة، ويعتبر الأستاذ كتاباتِهِ تدخل في إطار الثقافة العربية الإسلامية، حين يذكر أن الجائزة التي مُنِحت له باسم "جائزة الإمام ابن باديس" بقسنطينة في أبريل من سنة 1991، كانت من أجل مساهمته في حركة التأليف في الثقافة العربية الإسلامية".

ونسجل في هذا الصدد قوّة تمسك سعد الله بالميراث التاريخي العربي الاسلامي للجزائريين منذ الفتح الاسلامي وانصهار سكان هذا البلد مع الرصيد التاريخي الضخم، الذي اجتمع حوله الجميع دون أن تلغى الخصائص المميزة لكل منطقة، بشرط أن تكون بعيدة عن التأثيرات الاستعمارية.

ج-التفتح الحضاري على الدراسات العالمية وفق مناهج علمية حديثة: إن المتتبع لكتابات المؤرخ سعد الله خارج نطاق الكتابة التاريخية، سنجده يتابع تطور الأحداث التاريخية التي حدث في الماضي والحاضر على مستوى العالم الاسلامي والغرب الأوربي، فحاول تبني مواقف علمية بالتفتح على التراث العالمي خاصة البلدان الأنجلوسكسونية

التي اتقن لغتها وألف بها الكثير من دراساته، وجسد من خلالها أفكاره المنطلقة من المبادئ الإنسانية التي آمن بها، وفق منهج علمي صارم.

ولذلك تجلت مساهمة الدكتور سعد الله في التأسيس لحلّ إشكالية الوعي التاريخي في دعوته إلى التسلّح بالمناهج العلمية الحديثة، وكتابة التاريخ العلمي الدقيق لا التاريخ الاستعراضي أو تاريخ المناسبات، واجتهاده في إظهار الحقائق، وإبراز قيمة الأبطال، خلافًا لما ينعاهُ على الجزائريين من الزهد في الكتابة، والركون إلى الأوهام، وتهوين قيمة الرموز"[47] ولم يكن الأستاذ الراحل ببعيد عن محيطه المحلي والدولي، فقد استلهم الكثير من الأفكار والتجارب من مفكرين كبار أمثال مالك بن نبي وعبد الحميد ابن باديس ومحمد عبده والمفكر شكيب أرسلان[48] واستفاد من تجارب الكثير من المؤرخين العالميين أمثال أرلوند توينبي[49].

ونجح سعد الله في إثبات ذاتية الجزائريين وفق هذا الأفق الحضاري ومعالجة إشكالية الوعي التاريخي، بالرجوع إلى الأصول والمصادر الحقيقية التي تثبت دور الجزائريين في الإنتاج الفكري والأدبي من خلال ما يكشف لنا في مؤلفه "مسار قلم، وتسلح سعد الله في معالجة هذه الإشكالية وفق مناهج علمية حديثة، في جلّ كتاباته التي عبرت عن مدى التزامه بمنهج البحث العلمي المتزن مع مبادئه الوطنية والإنسانية، فكشف لقرائه وللطلبة والباحثين، أن الجزائر تقع في العالم العربي الإسلامي، وكان لها تاريخا أرتبط بالتقلبات والمتغيرات الدولية حيث ركّز عل الفترة الحديثة التي سبقت الاحتلال الفرنسي للجزائر بترجمته للعديد من الدراسات خلال الفترة العثمانية، موضحا أن الجزائر كان لها كيانا سياسيا معترف به دوليا[50]، ثمّ تناول في دراسات أخرى، تنامي الوعي التاريخي للجزائريين، التي عرفت بروز نخب مثقفة باللغتين طالبت الاستعمار بالوفاء بعهوده و ذلك بتمكين الجزائريين بحقوقهم الشرعية، حيث ركزّ على مجموعة الشبان الجزائريين وعلى رأسهم الأمير خالد الجزائري حفيد أبرز المقاومين للغطرسة الاستعمارية خلال القرن التاسع عشر "الأمير عبد القادر الجزائري"، ثمّ عالج إشكالية النخب السياسية خلال القرن العشرين التي تمكنت من تبني الأسلوب السياسي في مقاومة فرنسا الاستعمارية، وقد تتبع مسيرة هذه النخب وعالج أوضعها النفسية والفكرية والاجتماعية[51] وأنها استطاعت تحدي أساليب الاستعمار وتفتحت على مناهجه السياسية، وهو بذلك قد استطاع مناقشة إشكالية الانغلاق والتفتح من منظور تاريخي ووفق معطيات معاصرة للحدث الاستعماري.

ووفق هذا المنهج الحضاري الذي استلهمه من تجاربه مع الدراسات العالمية، فإنه قد ساهم في تعميق وبلورة التوجّه الثقافي الساعي إلى فكّ الارتباط بالموروث الاستعماري والثقافة التقليدية الميّتة، دون الانغلاق على الذات، بل التفتح على الثقافات المعاصرة للحدث التاريخي الذي عالجه في العديد من دراساته[52].

ولا غرو إذا أكدنا، بأن المؤرخ والأديب سعد الله من القامات الكبيرة في عالم الكتابة بالجزائر، وأخرج تاريخ الجزائر السياسي والثقافي من خزائنه المغلقة إلى الضوء ليحيا مع التاريخ الإنساني، ويتألق في الأفق مفندا نظرية الاستعمار الحضارية التي سرقت تراث الجزائريين إلى خزائنها بحجة حمايته ولم تشرك الجزائريين في دراسته وتعليم تاريخهم[53]، بل أخفت ذلك لتحاول أن تظهر للعلن بأنها جاءت لإنقاذ الجزائريين من التخلف، وبهذا التصور والقناعة الراسخة لدى مؤرخنا المرحوم، فإنه قام برفع راية الجزائريين شامخ، أينما حلّ بالدراسة والمحاضرة والكتابة بمختلف ألسن البشرية.

ومما لاشك فيه أن الدكتور أبو القاسم سعد الله يقدّم لنا نموذجا حيا في هذا المجال عن الأهمية الكبيرة للوعي التاريخي في تحصين الأفراد والمجتمع، وتحقيق توافقهما النفسي، وانسجامهما الاجتماعي فهو رحمه الله كان يتقن الإنجليزية، ويعرف الفرنسية والألمانية. . . ودرس في الولايات المتحدة حتى نال شهادة الدكتوراه، وانفتح على الثقافة العالمية المعاصرة وآدابها وتياراتها ومناهجها، في سن

عمْرية حساسة، وفي مرحلة تاريخية كان العالم فيها يغلي بالأفكار اليسارية واليمينية والتلفيقية، التي جرفت واستوعبت جل النخب الوطنية والعربية والإسلامية. . . وحولتها إلى دعاة ومبشرين بها ومجسدين لها في حياتهم الخاصة، وفيما يتاح لهم من مسئوليات ثقافية أو اجتماعية أو سياسية عامة في المجتمع"[54]، وهو بذلك استوعب التاريخ و وظفه في الحاضر من أجل تدارك النقائص والأخطاء للأجيال الصاعدة وحاول أن يقدم لها مشعل الثورة، لأنها بريئة من أخطاء الأجداد و الآباء الذين ارتكبوا أخطاءً، حاولوا تكراراها مع أبنائهم في فترة الاستقلال[55]، لذلك كتب كل التراث الثقافي و الأدبي من أجل أن يبرز للأجيال اللاحقة، نجاحات آبائهم وإخفاقاتهم، محاولا نصحهم بالتدبر والقراءة التاريخية من بناء تصور مستقبلي قليل الأخطاء وذلك بالتمسك بالمبادئ والأفكار التي اعتصمت بها الأجيال الماضية.

سعد الله رائد من رواد المدرسة التاريخية الجزائرية:

إنّ المتتبع لمسار الكتابة بمختلف اشكالها عند أبي القاسم سعد الله، سيلاحظ عمق المادة العلمية، المتعلقة بربط الماضي التاريخي لحركة الشعوب بواقعها الحاضر وفق معطيات دقيقة، من أجل استخلاص النتائج وتقريب المفاهيم الأساسية لمتغيرات حركة التاريخ، وبذلك نعتبره ابن خلدون عصره بالنسبة للعالم العربي الإسلامي، الذي شرّح واقع العالم الإسلامي التاريخي وركزّ على تاريخ بلاده، وحاول الإلمام بتاريخ البشرية لوضع مقاربات تاريخية مشتركة مع وجهة الأخر في مجال التحقيق وتأصيل المادة التاريخية، بتحويل المادة الخام إلى كلمات معبرة عن حركة الشعوب التاريخية.

وقد جسد سعد الله هذه النظريات التاريخية في تعامله مع الحقائق التاريخية، بعيدا عن الضغوط مثل ما وضح ذلك في العديد من المناسبات الإعلامية، بالرد على أسئلة الصحفيين في كيفية تعامل المؤرخ مع المستجدات التاريخية الماضية وتأثيراتها على أنظمة الحكم القائمة قوله[56]: "هناك اعتقاد سائد عندنا وهو أن المؤرخ كالسياسي إما أن يكون في السلطة أو المعارضة، وهذا في نظري اعتقاد خاطئ، فالمؤرخ قد يكون متفقا مع السلطة في بعض مواقفها وقد يكون مخالفا لها منتقدا تصرفاتها، مع العلم أنه يؤرخ لسلطات سابقة عن زمنه وليس بالضرورة لسلطة قائمة في وقته. وأمامنا مؤرخو الدول الغربية المعاصرة فهم يشاركون السلطة القائمة في توجهاتها أحيانا حتى يشعرونك بأنهم قد أصبحوا من خدامها ومن الممهدين لنشاطها وتدخلاتها ولكنهم قد ينتقدون قادتها نقدا لاذعا على تصرفاتهم الحمقاء إذا رأوا أن ذلك ضد مصالح الأمة"، و يضيف سعد الله موضحا مهمة المؤرخ ودوره العلمي في إظهار الحقيقة التاريخية النسبية دون توجيه اللوم بشكل دائم للسلطات الماضية التي أرّخ لها، أو التي يعيش في أحضانها: "ثم إن المؤرخ ليس دائما هو الذي يؤرخ لعصره نذلك أن عصور التاريخ كثيرة ومتباعدة ولكن رموز السلطة، تكون واحدة ولذلك فإن المؤرخ يجد نفسه ناقدا لسلطة عصره أو مؤيدا لها صراحة أو ضمنيا، وبالإضافة إلى ذلك فإن هناك مؤرخا محافظا وآخر ليبراليا وهناك المؤرخ المستقل البعيد عن أهل القرار، وبالجملة فالمؤرخ إنسان قبل كل شيء يتأثر بما حوله من بيئة وأسرة وتطورات علمية وسلطة وإعلام وتقاليد. . . "[57].

وقد وجه سعد الله في العديد من المحاضرات والمداخلات الإعلامية، نقدا لاذعا لكتاب انجروا وراء الجاه والمكانة المرموقة سرعان ما تغيرت هذه النظم، ووجد هؤلاء الكتاب المتحيزين لهذه الأنظمة أنفسهم خارج مجال التاريخ مثل ما يوضح: "وحديثي الذي أشرتم إليه كان عن الكتاب وليس المؤرخين وللأسف فإن البعض من الكتاب خضع لإغراءات السلطة وأحيانا ضغوطاتها وأيديولوجياتها فانضموا إليها وطبلوا لها وغنوا معها في زفة واحدة، وهم بذلك تركوا الشعب والمستقبل والضمير وراءهم فكانوا مأجورين وليسوا أصلاء، وكان إنتاجهم إنتاجا ظرفيا سرعان ما ذرته الرياح وهذه الظاهرة ما تزال ماثلة عندنا. . . " [58].

ونستطيع أن نلمّ بمصداقية الطرح الذي تبناه سعد الله في العديد من دراساته ومقالاته في الصحف الجزائرية، لنتأكد من الخصوصيات البارزة لسعد الله في المجال التاريخي، حيث شهد له الباحثون الجزائريون والأجانب بصفة شيخ المؤرخين، ونستطيع أن نقرر الآن أن الدكتور سعد الله هو رائد المدرسة التاريخية الجزائرية، وواضع بذورها في تربة الواقع الأكاديمي الجزائري، وصاحب مشروعها العلمي بدون منازع، وهو الذي رعى طوال مشواره العلمي الحافل بالأعمال الجليلة والمؤلفات الجادة التي تدافع عن الأرض وتذود عن العرض، وتتصدى للدجل العلمي الزائف باسم أكذوبة البحث العلمي بها الأجيال الماضية رغم أخطائها[59].

ونعتقد أن سعد الله من خلال هذه المميزات التي وضحناها سابقا، بأنه "تحول إلى مدرسة قائمة بذاتها ورمز علمي قضَّى أكثر من خمس وستين سنة فارسًا لا يُشقُّ له غبار في ميدان العلم. . . "[60]، وعاش شبابه وكهولته وشيخوخته بين الدفتر والقلم، وأحب الكتابة وتابع البحث إلى درجة كبيرة، فتحققت أمانيه، وأضحى مرتبطا بالكتابة لا يستغنى عنها، حسب تصرح طبيبه المعالج الذي نصحه بالكف عنها، إلا أنه توفى رحمة الله بين صفحات الكتب[61].

ونجد أنفسنا أمام مؤرخ قد أرسى قواعد المدرسة التاريخية الجزائرية، وساهم الراحل في بناء صرح التاريخ الوطني وبناء المدونة التاريخية الجزائرية، وفق قاعدتين أساسيتين وهما[62]:

-قاعدة تاريخ الجزائر السياسي والعسكري المعاصر، بتتبع مسيرة الصراع بين الجزائريين والفرنسيين خلال فترة الاستعمار الفرنسي، حيث لم يدرس بعدُ باستيعاب، ومن هنا كان طموحه، تقديم أرضية يمكن للباحثين اللاّحقين الاستفادة منها والانطلاق منها.

-وقاعدة أوسع لتاريخ الجزائر الثقافي، الذي حاول من خلالها الكشف عن الميراث الثقافي الضخم للجزائريين عبر العصور".

وقد ذكر سعد الله في إحدى مقالاته هذه النظرة المعبرة عن دور المؤرخ النزيه، الذي يخدم وطنه بالكشف عن الحقائق لا تدليسها قائلا: "طالما تحدث المؤرخون عن الموضوعية، وطالبوا بأن يكون المؤرخ مجردا في أحكامه بعيدا عن الأهواء والتأثيرات الخارجية، باحثا عن الحقيقة حيثما وجدها، مصدر أحكامه مهما كانت قاسية ضد الذين يكتب عنهم أو ينتمي إليهم مستخرجا حججه من النصوص والوثائق والآثار. . . هذا هو علم التاريخ كما تطور من هيرودوت إلى توينبي مارا بابن خلدون: إعادة بماء وإحياء الماضي كما كان لا كما يريده الفرد أن يكون"[63].

ومن هذا المنطلق فمؤرخنا رحمة الله عليه قد تألق في مجال التاريخ، وميادين أخرى، وبذلك "خدم الدكتور أبو القاسم سعد الله المجتمع الجزائري خدمة تاريخية وثقافية وأدبية ولغوية وتربوية وسياسية واجتماعية ونقدية، خدمة لا نجدها عند غيره من أعلام الفكر الجزائري؛ قديما وحديثا. . . فهو عالم لا يُشق له غبار في منهج كتابة التاريخ وخدمة التراث والتعامل معه. إنه صاحب تجربة طويلة، أفنى عمره في البحث والتنقيب مُرتحلا إلى جهات مختلفة في أنحاء العالم، ولا نجانب الحقيقة إذا قلنا: إن الرجل صاحب مدرسة متميزة كوَّن رعيلا من الباحثين في مجال العلوم الإنسانية، كالتاريخ والآداب والرحلات والاجتماعيات وغيرها"[64].

وبهذا التصور تمكن سعد الله من بناء أسس مميزة للمدرسة التاريخية الجزائرية، ونجح الأستاذ سعد الله في هذا المضمار إلى حدّ بعيد في تخطيط معالم مدرسة تاريخية جزائرية، ذات منهج عصري، ولسان عربي، ومضمون أصيل ووطني[65].

وشهد للأستاذ المرحوم خيرة طلبته والمتابعين له عن بعد أو قرب، هذه المكانة العلمية التاريخية التي لقب من خلالها بشيخ المؤرخين، مثلما سبقت الإشارة إليه، وبالفعل قد عاد سعد الله إلى وطنه بعد غربة ليست بالقصيرة مؤسسا برفقة الباحثين الجزائريين من رفاقه وطلبته، أسس المدرسة التاريخية الجزائرية، وذلك بالمساهمة العلمية والمنهجية

والفكرية في إثراء المكتبة الوطنية التي ظلت تشكو من قلة الدراسات الأكاديمية المعبرة فعلا عن تاريخ الشعب الجزائري العريق [66].

وقد تميز سعد الله في مجال الدراسات التاريخية بالجدية والصبر مع طلبته خلال المحاضرات و عمليات التأطير، حسب ما يذكر الأستاذ فيلالي[67]: "فكان الأستاذ مفعما بالحيوية والنشاط، غزير العلم، واسع المعارف، يحرص على أن يفرغ ما وسعه فهمه وعقله وذوقه وحسه الى طلابه، بكل جدية وعمق. . . فحاول الأستاذ الدكتور، نقل ما يمكن نقله، من أحدث ما توصلت إليه العلوم الاجتماعية من تطور وتقدم. . . ومعرفة منهجه، وتوسيع أفاق الإدراك به، وتعويد الطالب على حب العلم والقراءة، والتحكم في وسائل البحث واكتساب المعارف والتعمق في اللغة التي يدرس بها. وكان الأستاذ صارما جدا، في دروسه وتوجيهاته، معروفا بتشدده العلمي والمعرفي، فكانت له مقاييس منهجية ولغوية، لا يتساهل فيها مع طلابه، وخاصة منهم طلاب الدراسات العليا، وأن صرامته هذه صرامة الصادقين الناصحين".

وبهذا السلوك السوي تمكن أبو القاسم سعد الله من تكوين دفعات عديدة من الطلبة وتأطير الكثير منهم في الدراسات العليا، حيث أصبحوا اليوم أساتذة الجامعات الجزائرية، وتمكن جيل منهم في الكتابة التاريخية تيمنا بشيخهم سعد الله، الذي يبقى في نظرنا وفي اعتقاد طلبته وقرائه، نبراسا أنار الطريق أمامنا في مجال الكتابة التاريخية الموضوعية، الرافضة لتدخل الكتابة التاريخية الاستعمارية.

وبهذا المفهوم يمكننا الجزم، أن نقرر الآن أن الدكتور سعد الله هو رائد المدرسة التاريخية الجزائرية، وواضع أسس الواقع الأكاديمي الجزائري، وصاحب مشروعها العلمي بدون منازع، وتمكن من التصدي للأكذوبة التاريخية للاستعمار الفرنسي القائلة بتمدين الجزائريين، بغية الحفاظ على المدرسة التاريخية الفرنسية "التي تهاوت على أيدي البروفيسور أبو القاسم سعد الله الذي ظل إلى آخر رمق من حياته مرابطا في خندق التاريخ، وظل رمزا من رموز المجابهة الثقافية التي ليس لها من غاية سوى إحقاق الحق"[68].

ومن هذا المنطلق، فروح النقد التاريخي عند سعد الله، كانت شامخة شموخ جبال الجزائر، حيث أفادتنا في الكثير من البحوث والدراسات، حيث لا يستغني أي باحث في تاريخ الجزائر عن دراسات الأستاذ سعد الله، في استنباط المادة العلمية لكثرتها وجديتها وعلميتها وأكاديميتها وإرفاق الدراسات بجداول عن أعلام البلدان والأشخاص والخرائط، والنصوص القانونية والخطب والرسائل، حيث تشكل هذه الملاحق في حدّ ذاتها مواد بحث جديدة في التاريخ والأدب ومختلف مباحث العلوم الإنسانية والاجتماعية الأخرى.

الخاتمة:

إن اطلاعنا على الإنتاج التاريخي الضخم للفقيد، يجعلنا نعتز بما أنتجته الجزائر من العلماء الفطاحل في شتى أنواع المعرفة الإنسانية والاجتماعية، الذين استطاعوا بفضل كتاباتهم من تحرير تاريخ الجزائر من وراسب الاستعمار ومخلفاته الفكرية؛ التي كادت أن تقضي على هوية شعب، ناضل طويلا ضد الهجمة الاستعمارية التدميرية، مثلما ما كان يصفها المفكر الجزائري المرحوم مولود قاسم نايت، وتمكن شيخ المؤرخين من تجسيد هذه الفكرة عبر تراثه الكبير الذي تركه لأجيال الجزائر الصاعدة، تستلهم منه العبر وتدون من خلاله صفحات مشرفة من تاريخ الجزائر، كي لا يكرر الأبناء نفس أخطاء آبائهم وأجدادهم.

مما يجعلنا نستخلص من كتاباته في المجال التاريخي، أهمية المواضيع والدراسات التي أنجزها، والتي ستكون لنا ذخرا نقتدي به في بحوثنا، ونشق به طريق أشواك البحث، فنم قريرا يا شيخ المؤرخين، رحمك الله واسكنك فسيح جنانه، فقد تركت وراءك مدرسة تاريخية جزائرية تؤمن بمواصلة المشوار، وتكشف الغبار عن مآثرنا وأمجاد تاريخنا.

الهوامش:

(1) أبو القاسم سعد الله، منطلقات فكرية. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط2، 2005م، ص -ص: 44-45، وانظر أيضا: الموقع الرسمي لشيخ المؤرخين، أبو القاسم سعد الله.

(2) عبد القادر خليفي، البعد الاسلامي في كتابات أبو القاسم سعد الله، موقع الأصالة للدراسات: (assala-dz. net) الدخول يوم 1-11-2013.

(3) نفسه

(4) الدخول 15 -11-2013، www. aldjadidonline. Com 16 -12 -2012.

(5) الشروق، "مسامات "خاصة بسعد الله 15-12-2013.

(6) عبد القادر خليفي، البعد الاسلامي في كتابات أبو القاسم سعد الله، موقع الأصالة للدراسات، الدخول يوم 1-11-2013.

(7) كتب دراسة موسوعية حول التاريخ الثقافي الجزائري بمجلداتها العشر، وهو ما يؤشر لوجود ميراث ثقافي غزير، استطاع سعد الله الولوج إخراجه من طابعه الجامد إلى الحياة.

(8) عبد القادر خليفي، المرجع السابق.

(9) جريدة الشروق بتاريخ 17-12-2013

(10) نفسه.

(11) نفسه.

(12) نفسه.

(13) سعد الله أبو القاسم، تجارب في الأدب والرحلة، م. و. ك، الجزائر، 1983م، ص 11-29.

(14) أنظر عبد الكريم شبرو، التجربة الشعرية عند أبي القاسم سعد الله، مذكرة ماجستير في الآداب، إشراف السعيد الراوي، جامعة باتنة، 2006م، ص 13-35.

(15) محمد الصغير بلعلام: "سعد الله كان ناقدا وصحفيا وأديبا متمكنا"، جريدة الشروق 17-12-2013.

(16) Léon Roche, Dix ans A Travers L'Islam1834-1844, Libraire Académique; didier, Paris Préface

(17) Arséne Berteuil, L'Algérie Française, T1, Dentu, libraire Editeur, Paris 1856, p5. 17-

(18) Charles Robert Agéron, les Algériens Musulmans et la FranceT1 -T2,1871 -1914 , ed PUF- 1968.

قارن محمد غالم: "من أرشيف الإدارة الاستعمارية في الجزائر: الوثائق الفرنسية والهجرة إلى الديار الإسلامية" مجلة إنسانيات، العدد12، 2000م، الكراسك ومران، ص 27-38.

(19) سعد الله، أبحاث وأراء في تاريخ الجزائر، ج 4، إشكالية الكتابة التاريخية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص 7-10.

(20) سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية، ج 1، 1830 -1900، دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1992م، ص ص 15 -95.

(21) حوار مع سعد الله، جريدة الحقائق الأسبوعية، الجزء الأول، العدد 21 الصادر بتاريخ 17 مارس 2007م، نقلا عن موقع الجزائر أون لاين بتاريخ 14-01-2014.

(22) نفسه.

(23) بشير بلاح، الشروق 25 -12-2013.

(24) Géorges Voisin L'Algérie pour les Algériens, Michel Lévy, Libraire –Editeurs, Paris 1861- p90.

وأنظر أيضا: شارل أندري جوليان، إفريقيا الشمالية تسير، القوميات الإسلامية والسيادة الفرنسية، الدار التونسية، 1976م، والشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص ص 125-159.

(25) نقلا عن جريدة الشروق 25-12-2013.

(26) نفسه.

(27) سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر الجزء الرابع، المرجع السابق، ص 7-10.

(28) حوار مع سعد الله، جريدة الحقائق الأسبوعية، الجزء الثاني، العدد 21، الصادر بتاريخ 17 مارس 2007م، نقلا عن الموقع الجزائر أن لاين بتاريخ 14-01-2014.

(29) عدّة بن دامة، ظامرة الاستيطان والصراع حول ملكية الأرض إبان الاحتلال الفرنسي- للجزائر بين 1830- 1962، رسالة دكتورة، كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية، جامعة ومران، 2008م، مدخل الدراسة قارن -محمد بليل، تشريعات الاستعمار الفرنسي في الجزائر ما بين 1881 و1914، القطاع الومراني نموذجا، مذكرة ماجستير قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة ومران 2006م.

(30) حسن عثمان، منهج البحث التاريخي، ط 8، دار المعارف، القامرة، 2000م، ص 11-24.

(31) نصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، ط 1، بيروت لبنان، 2000، ص 9-11. قارن عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي ط 2، الدار البيضاء، المغرب، 2009م، ص 13 -14.

(32) عبد القادر خليفي، المرجع السابق.

(33) Abou El kassem Saad Allah, la montée du nationalisme en Algérie. Dar Elgharb Islami, Beirout, 2ème édition: 2005

(34) سعد الله، حوار مع مجلة الحقائق الأسبوعية ج 2، المرجع السابق؛ وأيضا أبو القاسم سعد الله: "منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، مجلة الأصالة، المجلد 05، العدد 14-15، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية، 2011م، ص 7 -26.

(35) أبو القاسم سعد الله: "الأستاذ جوليان شارل أندري والتاريخ الجزائري"، في مجلة المعرفة، العدد 19، 1965م.

(36) أنظر العديد من المخطوطات التي قام سعد الله بتحقيقها: رحلة الأغواطي الحاج ابن الدين، دار المعرفة الدولية للنشر والتوزيع، الجزائر، طبعة خاصة، 2011م؛ رحلة ابن حمادوش (لسان المقال)، تأليف عبد الرزاق بن حمادوش، المكتبة الوطنية الجزائر، 1982م.

(37) أنظر دراسته الهامة: الحركة الوطنية الجزائرية، ج2، 1900-1930، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1992م.

(38) أرزقي فراد: "المؤرخ سعد الله طلق الراحة من أحل الوطن"، جريدة الشروق، 22-01-2014م.

(39) حوار سعد مع جريدة الحقائق الأسبوعية الجزء الأول، مرجع سابق

(40) أسد رستم، مصطلح التاريخ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، 1929م، ص 119.

(41) أبو القاسم سعد الله، جريدة الشعب، العدد 7742، 1988/09/15م.

(42) نشرت الشروق مساهمات لباحثين ومفكرين في التاريخ والأدب والفلسفة حول تجربة الكتابة عند سعد الله أعداد شهر ديسمبر 2013 يناير، 2014م.

(43) بشير بلاح: "مختارات مسار قلم لأبو القاسم سعد الله"، مجلة عود الند للثقافة الشهرية، الناشر علي الهواري، لندن، العدد91، يناير، 2014م.

(44) نفسه.

(45) أبو القاسم سعد الله: "جمعية العلماء والسياسة"، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج 4، المصدر السابق، ص ص 141 -148.

(46) عبد القادر خليفي، assala-dz. netالأصالة للدراسات، المرجع السابق.

(47) بشير بلاح، الشروق 23- 12 -2013؛ وموقع جمعية العلماء المسلمين الجزائريين الدخول يوم 29-01-2014.

(48) أبو القاسم سعد الله: "الأمير شكيب أرسلان والقضية الجزائرية"، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج4، المرجع السابق، ص 114 -138.

(49) ألف العديد من الكتب حول الحضارات العالمية من الهلينية إلى الإسلامية والغربية وأرسى مفاميم تاريخية في دراسة البشرية وتعاقب الحضارات.

(50) أنظر العديد من المصادر: جون بابتست وولف، الجزائر وأوربا 1500-1830، ترجمة: أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 2، 2005م.

- شارلز هنري تشرشل، حياة الأمير عبد القادر، ترجمة: أبو القاسم سعد الله. دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط 2، 2005م.

Chaw L'Algérie, Un Siècle avant l'Occupation Française, ed, imprimerie de Carthage, 1968

(51) رابح لونيسي: البدايات الأولى للثورة الجزائرية، المصاعب والتحديات، مجلة عصور الجديدة، يصدرها مختبر البحث العلمي، تاريخ الجزائر، جامعة وهران، ص 24- 39.

(52) بشير بلاح: مسار قلم، مجلة عود الند للثقافة الشعبية، لندن، العدد91، يناير 2014م.

(53) سعد الله أفكار جامحة، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط 2: 2005 م؛ وأنظر أيضا: أرزقي فراد، جريدة الشروق، المرجع السابق.

(54) الطيب برغوث: "هكذا يكون المجد حقا، كلمة وداع للدكتور أبو القاسم سعد الله"، الشروق، يوم 27- 12 -2013.

(55) حديث سعد الله مع جريدة الحقائق الأسبوعية، ج2، المرجع السابق.

(56) نفسه.

(57) نفسه.

(58) نفسه.

(59) نقلا عن جريدة الشروق 25-12-2013.

(60) نفسه.

(61) الشروق 15 -12-2013.

(62) بشير بلاح: " هموم ومساهمات ثقافية في مسار الفقيد العلامة ابو القاسم سعد الله"، جريدة الشروق يوم 22-12-2013.

(63) أبو القاسم سعد الله: "في التجربة التاريخية"، المجاهد الثقافي، العدد9، 1969م؛ وأيضا في أبحاث وآراء، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص51 -54.

(64) عبد الكريم العوفي: "هيرودوت الجزائر يرحل وتبقى موسوعاته التاريخية والثقافية تنتظر الباحثين"، جريدة الشروق الجزائرية، 19 - 2014-01.

(65) بلاح بشير الشروق يوم 22-12-2014، المرجع السابق.

(66) أحمد حداد، الشروق، 25-01-2013.

(67) عبد العزيز فيلالي: "شيخ المؤرخين الجزائريين الدكتور سعد الله. . . خالد بتراثه وفكره"، جريدة الشروق، يوم 09-01-2014.

(68) أحمد السائح، الشروق، يوم 14-01 -2014.